بحث محكم | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 12 يونيو 2023

الاحتفاء بالهامش
بارت والخطيبي

مراد الخطيبي
باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2023
All rights reserved © 2023

ملخص:

شكل رولان بارت (12 نونبر 1915- 26 مارس 1980) ومشروعه النقدي خاصة في مجال السيميائيات أحد أهم المرجعيات في مسار الأديب والمفكر عبد الكبير الخطيبي. ورافقه هذا المشروع في فترات عديدة في حياته، بدءا من مرحلة الدراسة خاصة خلال مرحلته الجامعية بجامعة السوربون بباريس الفرنسية إلى غاية تثبيت اسمه كباحث متميز تجاوز صيته الحدود الجغرافية، وأصبحت مشاريعه وأعماله الفكرية، النقدية والإبداعية مادة للدراسة والبحث في العديد من الجامعات والمعاهد العربية والدولية، وترجمت ولا زالت تترجم أعماله إلى اللغة العربية واللغة الإنجليزية تحديدا. وعليه، تتوخى الدراسة تحليل مدى استفادة عبد الكبير الخطيبي من الدرس السيميائي كما حدده رولان بارت. بالسيميائيات نجح الخطيبي في اقتحام عدة علامات ومجالات مثل الوشم، الأمثال، الخط، الحكاية، الأدب الشفوي، الصورة، الموسيقى الفن التشكيلي؛ وذلك بكثير من اللذة « Un plaisir » بتعبير رولان بارت. أثبتت هذه الدراسة بعض معالم التجديد الذي قام به عبد الكبير الخطيبي في مجال السيميائيات خصوصا من خلال مؤلفه: « La Blessure du nom propre » (الاسم العربي الجريح). في هذا العمل الذي سيشتغل فيه الخطيبي على الوشم، الأمثال المغربية، الرسم الخطي، الحكاية، بلاغة الجماع وغيرها من المواضيع استعمل الخطيبي منهجا رصينا يتمثل في منهج «التداخل الدلائلي» « Intersémiotique ». وأوضحت الدراسة أن اجتهاد الخطيبي في مجال النقد وفي حقل السيميائيات تحديدا، سيجعل رولان بارت ينسج شهادة قوية تعبر عن التقدير الكبير الذي يكنه له ولمجهوده العلمي الرصين.

1. مقدمة:

من المعلوم أن المفكر والأديب عبد الكبير الخطيبي كانت له مرجعيات فكرية وفلسفية وأدبية مختلفة، وكون في مراحل متفرقة من حياته صداقات فكرية مع ماركس وسارتر ونيتشه وهايدغر وجيل دولوز وجان فرانسوا ليوتارد وليفي شتراوس وفوكو وجوليا كريستيفا وبلانشو وجاك دريدا ورولان بارت وجاك حسون وإدوارد سعيد وجان جينيه وصمويل فيبير وأدونيس والمعري وخليل جبران وغيرهم. ويعد رولان بارت علما بارزا في عالم الفكر الغربي. كان في السابق يشكل أهم مرجعيات الخطيبي الفكرية وأصبح فيما بعد صديقه الحميم. وهنا لا بد من التأكيد أن الصداقة بين رمزين في النقد وفي الفكر في قيمة الخطيبي وبارت هي صداقة متفردة تطبعها أشياء كثيرة مشتركة سأسرد البعض منها.

وهنا، لا بد من التأكيد في البداية أن العلاقة بين علمين في النقد والفكر مثل عبد الكبير الخطيبي ورولان بارت لا يمكن في حقيقة الأمر التفريق فيها بين الصداقة الإنسانية والفكرية. ويظل الخيط الرابط بينهما هو الود والمحبة والاحترام المتبادل، رغم الاختلاف في الرؤى والتصورات والأفكار في بعض الأحيان.

واعتبارا لأهمية هذه الصداقة الفكرية والعلمية بين هذين المفكرين والناقدين، تهدف هذه الدراسة إلى رصد مسار هذه الصداقة ابتداء من تأثر عبد الكبير الخطيبي بكتابات رولان بارت وبمنهجه السيميائي إلى غاية تمكنه من تطوير آليات اشتغاله والتطرق إلى عدة مجالات معرفية وأدبية بمعدات نقدية ساهم في تطويرها وكسب بالتالي اعتراف رولان بارت وجاك دريدا وغيرهما بمكانته العلمية المتميزة.

- **الفرضيات:**

1- الصداقة الفكرية والإنسانية الحقيقية هي التي تلك تؤمن بمبدأ الاختلاف وتكرس مبدأ الاعتراف.

2- البحث في العلوم الإنسانية هو بالضرورة تناص معرفي وعلمي.

انطلاقا من الفرضيات السالفة الذكر تتوخى الدراسة الإجابة عن الأسئلة التالية:

- **أسئلة البحث:**

1- ما هي البداية الحقيقية لتعرف عبد الكبير الخطيبي على كتابات رولان بارت؟

2- ماهي بعض سمات مشروع بارت السيميائي؟

3- ماهي تفاصيل تأسيس الصداقة الفكرية والإنسانية بين رولان بارت وعبد الكبير الخطيبي؟

4- إلى أي حد استفاد عبد الكبير الخطيبي من المنهج السيميائي ومن الرصيد العلمي والمعرفي لرولان بارت في تطوير آليات اشتغاله؟

- **الأهداف:**

الهدف من الدراسة هو ملامسة الصداقة الفكرية والإنسانية بين عبد الكبير الخطيبي ورولان بارت بكل تفاصيلها الممكنة وكذا الكشف عن التجديد الذي حمله المشروع النقدي والفكري والأدبي لعبد الكبير الخطيبي، والذي جعل رولان بارت يعترف بمكانته العلمية المرموقة.

2. الصداقة الفكرية:

يقول عبد الكبير الخطيبي: «الصداقة الفكرية لا تنقضي بموت صديق من الأصدقاء. على العكس من ذلك تستمر وتتناسخ بشكل متفرد من خلال التأبين وأيضا عبر محنة طرد الأرواح الشريرة»[1].

هذه الصداقة التي يتكلم عنها الخطيبي تأخذ عدة أشكال وصيغ. صداقة قد تكون فردية وقد تكون جماعية. صداقة قد يصل مداها إلى مستوى التحاب L'aimance. يقول عبد الكبير الخطيبي:

«التحابّ هو أن تحب وأنت تفكر؛ هو فعل، انسجام فعال بين الرجال والرجال والنساء والحيوانات وأشباهها، والنباتات وكل شيء يمهد للوجود؛ هو علاقة تسامح ومعرفة بالعيش المشترك بين أنواع وحساسيات وأفكار وديانات وثقافات مختلفة.إنه فن التناظر الحي الذي يمنح للصداقة تلك الرقة وتلك اللامبالاة الظاهرة من أجل تحرير مجال للغبطة ودفعة تحول دون بلوغ المتعة.»[2]

في إطار الصداقة الفكرية التي يتشبث بها عبد الكبير الخطيبي ويؤمن بأهميتها وقيمتها، سبق أن تجسدت من خلال مؤلفات عبارة عن مراسلات بينه وبين كتاب ومفكرين على غرار كتاب: Le même livre[3] مع المفكر جاك حسون و Correspondances[4] مع الكاتبة غيتة الخياط ثم كتاب آخر في شكل حوار فكري مع الفيلسوف الامريكي صمويل فيبر تحت عنوان: «الطريق نحو الآخر Le chemin vers l'Autre »[5].

وهناك أيضا مؤلفان اثنان ساهما بشكل أساسي في تجسيد الصداقة الإنسانية والصداقة الفكرية اللتين تجمعان عبد الكبير الخطيبي بصديقه جاك دريدا. الأول أصدره جاك دريدا تحت عنوان: : «أحادية لغة الآخر Le monolinguisme de l'autre»[6] والثاني أصدره عبد الكبير الخطيبي تحت عنوان: «Jacques Derrida, en effet»[7] جاك دريدا، طبعا».

كتاب جاك دريدا: **«أحادية الآخر اللغوية Le monolinguisme de l'autre»**، هو مؤلف في شكل حوار غير مباشر مع صديقه عبد الكبير الخطيبي يعود فيه بذاكرته إلى أشغال الملتقى الدولي الذي انعقد بلويزيانا بالولايات المتحدة الامريكية سنة 1992، والذي التأم فيه ثلة من الباحثين الذين يشتغلون باللغة الفرنسية، والذين ينتمون إلى ثقافات متباينة وأمم مختلفة ليتدارسوا فيه أعمال جاك دريدا. لكن دريدا يؤكد على وجود واحد من أهم المشاركين في هذا الملتقى العلمي ألا وهو صديقه عبد الكبير الخطيبي.

أما بخصوص مؤلف: «Jacques Derrida, en effet» جاك دريدا، طبعا» فقد أصدره عبد الكبير الخطيبي سنة 2007 لتوجيه التحية إلى صديقه جاك دريدا. ويندرج هذا المؤلف ضمن ما يسمى بالصداقة

الفكرية القائمة على مبدأ القبول بالاختلاف والمحبة والجدال المثمر والحجاج البناء وضمن ما يصطلح عليه برد الجميل، ولكن في إطار عالي من المقارعة الفكرية المتميزة والتواصل المعرفي الرصين.

3. طريقة المعالجة ygolodohteM

للإجابة عن أسئلة البحث، توخت الدراسة الاعتماد على منهج دراسة الأفكار عن طريق قراءة بانورامية لبعض أعمال رولان بارت وعبد الكبير الخطيبي خاصة الأعمال التي تمثل خطوط التلاقي بينهما وكذا المنهج البيوغرافي Biographical approach؛ وذلك بالاعتماد بصفة أساسية حول شهادة رولان بارت حول الخطيبي وأيضا شهادة عبد الكبير الخطيبي في حق رولان بارت والتي ضمنها في مؤلفه: («الناسخ وظله» Le scribe et son ombre)[8].

4. بداية تأسيس الصداقة الإنسانية والفكرية بين رولان بارت والخطيبي أو بين الخطيبي وبارت:

عند قراءة آخر مؤلف لعبد الكبير الخطيبي الموسوم بـ: «**الناسخ (الكاتب) وظله**» **Le scribe et son ombre** الذي صدر سنة 2008 أي سنة قبل غيابه، يشعر القارئ وكأن الخطيبي يتحسر على عدم إنجازه لكتاب مشترك مع رولان بارت على غرار ما تم مع جاك حسون وغيته الخياط. نفس الشيء ينسحب ربما على أصدقاءه الآخرين مثل: جان جينيه، إدوارد سعيد، عبد الوهاب مؤدب، أدونيس وغيرهم.

شكل رولان بارت ومشروعه النقدي خاصة في مجال السيميائيات أحد أهم المرجعيات في مسار الأديب والمفكر عبد الكبير الخطيبي. ورافقه هذا المشروع في فترات عديدة في حياته بدءا من مرحلة الدراسة خاصة خلال مرحلته الجامعية بجامعة السوربون بباريس الفرنسية إلى غاية تثبيت اسمه كباحث متميز تجاوز صيته الحدود الجغرافية المحلية. وأصبحت مشاريعه وأعماله الفكرية، النقدية والإبداعية مادة للدراسة والبحث في العديد من الجامعات والمعاهد العربية والدولية وترجمت ولا زالت تترجم أعماله إلى اللغة العربية واللغة الإنجليزية تحديدا.

في مؤلفه الأخير: **Le scribe et son ombre** «**الكاتب (الناسخ) وظله**»، وهو مؤلف عبارة عن سيرة ذاتية فكرية أو بمثابة وصية (testament) بتعبير الباحث رشيد بوطيب، يقول عبد الكبير الخطيبي أن ارتباطه برولان بارت تم بداية بواسطة: م. فرانسوا(M.François) أستاذه بثانوية ليوطي بمدينة الدار البيضاء، والذي كان من أشد الأساتذة الفرنسيين دفاعا على استقلال المغرب[9]، حيث تعرف حينذاك على مؤلف رولان بارت: «**درجة الصفر في الكتابة**»(Le Degré zéro de l’écriture) الذي صدر سنة[10] 1953.

سنة 1965 سيقدم عبد الكبير الخطيبي رسالة الدكتوراه بجامعة السوربون حول الأدب المغربي (Le Roman Maghrébin) وكان رولان بارت عضوا في لجنة المناقشة التي كانت تضم أيضا بيرك (Berque) المشرف على رسالته وكذا إتيمبل(Etiemble).[11] ونعلم أن رسالته كانت حول الأدب المغربي (المغاربي) Le roman maghrébin.

سيتجدد اللقاء في المغرب بين الخطيبي وبارت، عندما عمل هذا الأخير أستاذا بجامعة محمد الخامس بالرباط خلال السنة الجامعية 1969-1970. وكانا يقطنان في نفس العمارة، مما جعلهما يلتقيان بشكل دائم.[12] وهذه الفترة كانت فترة متميزة على المستوى الثقافي وحتى السياسي، وكانت الجامعة فضاء يجسد هذا التنوع الثقافي وغناه وقوته وخلقت أجيالا من المثقفين والكتاب والمفكرين والفلاسفة والأدباء. ومدينة الجديدة، مسقط رأس عبد الكبير الخطيبي كانت هي الأخرى شاهدة على لقاءاتهما فيها.

ذات مرة يحكي الخطيبي أن رولان بارت اقترح عليه أن يقوما معا ببحث حول الملابس وتحديدا حول سيميائيات اللباس المغربي. ونظرا لانهماك الخطيبي حينذاك بإنجاز عمله الإبداعي الأول: «الذاكرة الموشومة» (La Mémoire tatouée) الذي سيصدر سنة 1971، فإنه اعتذر له مكرها.[13]

بعد سنوات، سيقترح الخطيبي على صديقه بارت أن يكون مشرفا ثانيا على رسالة الدكتوراه التي كان يحضرها عبد الحي الديوري حول: «**كناوة Gnaoua**»، وهي مجموعات موسيقية فولكلورية مغربية. كان من المفترض أن يناقش الباحث عبد الحي الديوري رسالته في باريس. اتصل به عدة مرات من أجل تحديد تاريخ المناقشة إلا أن هاتفه ظل يرن دون أن يعرف أي خبر عن صديقه. بعد أسبوع، علم الخطيبي بأن بارت توفي في حادثة سير. توفي تحديدا يوم 26 مارس 1980.[14]

على غرار دريدا، شكل رولان بارت للخطيبي الصداقة الحقيقية بكل تجليتها الفكرية والإنسانية. يقول الخطيبي، وهو يتذكر صديقه بتأثر عميق بأنه كان مجددا ومتجددا ومحافظا على تفرده وسط ساحة ثقافية باريسية تتسم بمنافسة شديدة. كان يرفض كل نظام فكري متحجر وثابت وفي هذا يشبه الخطيبي كثيرا في اختراقه للثوابت ومناقشتها وتفكيك كل ما يشكل المركز بتعبير نيتشه أو دريدا وإزالة زيف القدسية عنه ليكون موضوعا للتحليل والبحث.

على المستوى الإنساني، كان شخصا كتوما، صامتا في أغلب الأحيان، وهذا أيضا ما كان يتميز به الخطيبي.

ما يهم هو أن الخطيبي رغم تكوينه في علم الاجتماع، فإن السيميائيات خاصة مع أحد أقطابها الأساسيين وهو رولان بارت ساهمت في جعله يطرق مواضيع جديدة، وظلت بالتالي قريبة من ولع الخطيبي بمجال الكتابة كما يعبر الخطيبي عن ذلك في مؤلفه الذي سبق ذكره.

5. السيميائيات: القاسم المشترك بين بارت والخطيبي

تتجلى الأهمية النقدية للسيميائيات حسب الباحث «بيتر بيريكلستريفوناسPeter PericlesTrifonas» في كونها تساعد المنظرين على خلق ميتا- لغة Meta-language - لغة أو خطاب نقدي- قادر على تحليل أشكال التمثلات وبنياتها، باعتبارها أجزاء مشفرة داخل منطق النظام.[15]

في هذا الإطار، قام رولان بارت بتطوير المنهج السيمائي بعد استفادته من أعمال فردناند دوسوسير وهلمسليف ورومان ياكوبسون وإميلي بنفنيست. وإلى جانب جان بياجي وكلود لفي شتراوس، تمكن رولان بارت من خلال مشروعه المتميز من نيل اهتمام عدد كبير من النقاد والمهتمين بمجال السيميائيات من بينهم: جوليا كريستيفا وميشيل فوكو وجاك لا كان وتزفيتان تودوروف وجاك دريدا وجيل دولوز ولويس التوسير وجان فرانسوا ليوتار والخطيبي وغيرهم.

بداية، لا بد من تقسيم المشروع البارتي في مجال السيميائيات إلى قسمين: القسم الأول وهو استفادته من لسانيات فردناند دوسوسير. ورغم تأثره بنظرية دوسوسير حول علاقة اللسانيات بالسيميولوجيا، باعتبارها حاضنة لها إلا أن بارت أتى بأطروحة جديدة بخصوص هذه العلاقة. ويقول بارت في هذا الخصوص:

«ورغم التقدم الكبير الذي أحرزته فكرة سوسير تلك، فإن علم الأدلة يبحث عن ذاته بتؤدة. وربما كان السبب بسيطا، فلقد اعتقد سوسير، الذي ردد الدلائليون الرئيسيون أفكاره ونقحوها، أن اللسانيات ليست سوى قسم في علم الأدلة العام، إلا أنه من غير الأكيد قطعا، أن تكون في الحياة المجتمعية المعاصرة أنظمة أدلة، غير اللغة البشرية، لما لهذه الأخيرة من سعة وأهمية.»[16]

لهذا، فبالنسبة إلى بارت مركزية علم اللغة ثابتة، ولا يمكن تقزيم أهميتها وشموليتها وأيضا احتضانها لعدد كبير من المجالات. وبالتالي، فإن السيميائيات في نظره تبقى قاصرة على تغطية مجالات أوسع ودورها يبقى محدودا في هذا الإطار بالمقارنة مع اللسانيات.

فهو يؤكد إذن أن السيميائيات لا يمكن أن تكون مجالا مستقلا بذاته، بل هي جزء لا يتجزأ من علم اللغة أو اللسانيات عموما؛ لأنها في نظر بارت عالم مشكل من صور وأشياء وسلوكيات ذات دلالات متعددة لا يمكن فصلها عن اللغة.[17]

ومن أجل تأسيس مشروعه السيميائي، اعتمد رولان بارت على أربعة محاور كبرى استقاها من اللسانيات البنيوية، وهي:

1- اللسان والكلام:

تحتل هذه الثنائية مكانة أساسية في لسانيات دو سوسير؛ فاللغة في نظر دوسوسير هي تعاقد جماعة بشرية على مجموعة من القواعد والأنظمة والكلام هو الذي يجسد فعليا وتطبيقيا هذه الأنظمة وهذه القواعد. وبالتالي، فاللغة والكلام عنصران مرتبطان ببعضهما البعض وفي الآن نفسه فهما متميزان عن بعضهما البعض؛ فالكلام لا يمكن تحقيقه إلا باللغة، حيث يقوم باستعمال القواعد التجريدية الموجودة في الدماغ. واللغة من جهة أخرى، لا قيمة لها من دون أفراد يستخدمونها. فاللسان كما يقول رولان بارت:

«لغة بلا كلام إنه مؤسسة مجتمعية ونظام من القيم في الوقت ذاته وباعتباره مؤسسة مجتمعية فهو ليس فعلا قط ولا يخضع لأى نية مسبقة. إنه القسم المجتمعي من اللغة وليس في مقدور الفرد وحده أن يخلقه أو أن يغيره، وهو أساسا عقد جماعي على كل من يرغب في التواصل أن يخضع له كلية.»[18]

وفي مقابل اللسان يرى بارت أنه:

«في مقابل اللسان المؤسسة والنظام نجد الكلام وهو أساسا فعل فردى للاختيار والتحقق وهو مكون من التركيبات التي تستطيع الذات المتكلمة بفضلها استعمال شفرة اللسان قصد التعبير عن فكرها الخاص.»[19]

ولأن بارت يؤمن بقيمة هذه العلاقة الجدلية بين مفهومي اللسان والكلام مادام وجود واحد منهما مرتبطا بوجود الآخر، فإنه عمل على تطبيقهما على مختلف الظواهر الاجتماعية والثقافية مثل الأزياء والأطعمة والأثاث.

ففيما يخص الطعام باعتباره نظاما دلاليا، يرى بارت أننا نجد فيه هذه الثنائية السوسيرية المتمثلة في اللسان والكلام. فلسان الطعام يشمل «قواعد الإقصاء» أي المحرمات من المأكولات ثم «التعارضات» بين مثلا مالح وحلو، و«قواعد الجمع والتأليف» على مستوى الأكل أو الوجبة. أما الكلام «الغذائي»، فيرى بارت أنه يتجسد من خلال العادات العائلية في إعداد وتهييئ المطبخ وفي اللهجات الشخصية إلخ. وبالتالي، فبارت يرى أن «لائحة الأطعمة» تترجم بشكل واضح هذه الثنائية بين اللسان والكلام؛ لأنها تتأسس وفق بنية وطنية وإقليمية واجتماعية.[20]

2- المدلول والدال:

الدليل في مفهوم دو سوسير يتكون من المدلول والدال، ويرى بارت أن الدليل مصطلح صعب التحديد ومرد هذا الغموض حسب بارت هو:

«تواجده في معاجم مختلفة (من اللاهوت حتى الطب) ثم بسبب تاريخه الغني (من الإنجيل إلى السيبرنطيقا). لذلك يجب أن نتحدث قليلا - قبل العودة إلى الفهم السوسيري، عن المجال المفهومي الذي يحتل فيه مكانة هي، فضلا عن ذلك، وكما سنرى، غير قارة. الواقع أن «الدليل» يندرج حسب مشيئة الباحثين ضمن سلسلة من المصطلحات المترادفة والمتنافرة: فالمنافسات الرئيسة لدليل هي: إشارة، قرينة، أيقونة، رمز، كتابة تصويرية Allégorie. ولنحدد، أولا العنصر الذي تشترك فيه كل هذه المصطلحات: حيث تحيل جميعا إلى، وبالضرورة، إلى علاقة بين طرفين، ولكن هذه السمة لا يمكن أن تميز أيا من المصطلحات عن باقي السلسلة.»[21]

ويرى بارت أنه من أجل حل هذا الإشكال، لا بد من البحث عن ثنائيات أخرى أو اختلافات في المعنى.

ويقترح بالتالي هذه السمات في شكل ثنائية حضور/غياب ووفق مقولات من نوع: التمثيل والمشابهة والمباشرية والمطابقة والوجودية[22]:

1- **التمثيل**: أن تشمل العلاقة التمثيل النفسي لواحد من الجانبين.

2- **المشابهة**: أن تتخلل العلاقة أولا مشابهة بين الجانبين.

3- **المباشرية**: أن تكون علاقة مباشرة أو غير مباشرة بين الجانبين.

4- **المطابقة**: أي أن يتطابق الجانبان بشكل مطلق أو لا يتطابقا بالمرة.

5- **الوجودية**: أن تكون العلاقة حاملة لنسبة وجودية مع الشخص الذي يستخدمها.

ويؤكد بارت أن كل مصطلح من المصطلحات السابقة يختلف عن الباقي، إما باعتبار هذه السمات إيجابية أو سلبية مضيفا أن اختلاف توزيع المجال من كاتب إلى آخر يؤدي حتما إلى ما يسميه بارت ب «تناقضات مصطلحية».[23]

ومن أجل تسهيل عملية الإحاطة بهذه التناقضات، يقترح رولان بارت الجدول التالي يلخص فيه تلاقي السمات والمصطلحات عند أربعة مؤلفين هم هيغل، وبورس، ويونغ، وفالون[24]:

	إشارة	قرينة	أيقونة	رمز	دليل	كتابة تصويرية
1. التمثيل	فالون -	فالون -		فالون +	فالون +	
2. الشبه (المقارنة)			بورس +	هيجل+ فالون+ بورس-	هيجل- فالون-	
3. المباشرية	فالون +	فالون -				
4. المطابقة				هيجل- يونج- فالون-	هيجل+ يونج+ فالون+	
5. الصيغة الوجودية	فالون+	فالون- بورس +		بورس - يونج+		يونج-

ويبين هذا الجدول الذي يقترحه رولان بارت أن التناقض على مستوى المصطلح يتأسس حول القرينة التي هي وجودية لدى بورس بينما العكس لدى فالون. كما أن هذا التناقض يظهر على مستوى الرمز، حيث يلتقي هيجل وفالون في رأيهما حول علاقة شبه أو «تحفيز» بين طرفي الرمز بينما العكس عند بورس. كما أن الرمز غير وجودي بالنسبة إلى بورس ووجودي بالنسبة إلى يونج. هذا ويمكن قراءة هذا الجدول أفقيا أيضا، الرمز مثلا شبهي لدى هيجل والدليل ليس شبهيا لديه.[25]

وعموما، يؤكد بارت أن:

«كلمات المجال لا تستمد معانيها إلا من خلال تعارض بعضها مع بعض (وتأتي عادة في شكل أزواج)، ومعنى هذا أيضا أنه إذا ما حوفظ على هذه التعارضات لا يعتور المعنى إبهام، خصوصا وأن الإشارة والقرينة، والرمز والدليل موظفات تؤدي وظيفتين مختلفتين، قد تتعارضان هما نفسهما تعارضا شاملا كما هو الحال عند فالون ذي المصطلح الأكمل والأوضح. أما الأيقونة والكناية التصويرية، فترتبطان خصوصا بمعجم بورس وبيونج. سنتفق إذن مع فالون على أن الإشارة والقرينة زوج أطراف مجرد من كل تمثل نفسي، في حين أن هذا التمثل يوجد في الزوج النقيض أي الرمز والدليل، وعلى أن الإشارة تكون، فضلا عن ذلك، مباشرة ووجودية، في مقاب القرينة التي ليست مباشرة ولا وجودية (لأنها مجرد أثر)، وأخيرا على أن التمثل شبهي وغير متطابق في الرمز (فالمسيحية تغمر الصليب وتتجاوزه) في مقابل الدليل، حيث تكون العلاقة غير محفزة ومطابقة (لا شبه بين كلمة ثور وصورة ثور التي يغطيها المترابط معها relatum بكيفية تامة»[26]

وإجمالا، فالدليل بالنسبة إلى بارت يضم الدال والمدلول؛ الدال يرمز بالنسبة إليه إلى العبارة، وأما المدلول فهو المحتوى أو المضمون. والدال والمدلول لا يمكن التطرق إليهما أو تحليلهما بشكل منفصل؛ لأنهما متلازمان. كما أن بارت يؤكد أيضا على أهمية السياق في تحديد وظائف هذه الدلالات، حيث لا قيمة للدلالة دون ربطها بالسياق التي تتحرك من خلاله.

3- المركب والنظام:

اعتمد دوسوسير على هذه الثنائية بشكل كبير في القضايا اللسانية بشكل خاص. ويوضح بارت هذه الحقيقة من خلال قوله إن: «العلاقات التي توحد بين الألفاظ اللسنية يمكن أن تنمو على صعيدين، يولد كل واحد منهما قيمه الخاصة، ويتلاءم هذا الصعيدان مع شكلين من أشكال النشاط الذهني (سيعود جاكوبسون إلى هذا التعميم بالدرس).»[27]

ويعرف بارت المركب بأنه:

«تأليف للأدلة يرتكز على مدى، وهذا المدى، في اللغة المتفصلة امتداد سطري ذو بعد واحد لا ينعكس (إنه «السلسلة الكلامية»): لا يمكن النطق بعنصرين دفعة واحدة (شر الخصال القسوة على الضعفاء) تستمد كل لفظة هنا قيمتها من تعارضها مع سابقاتها ولاحقاتها، إن الألفاظ في السلسلة الكلامية تتحد، بالفعل، حضوريا، أما النشاط التحليلي الذي ينطبق على المركب فهو التقطيع. الصعيد الثاني: هو صعيد associations تداعي الألفاظ وتجميعها (للحفاظ، أيضا على مصطلح سوسير «خارج الخطاب (أي الصعيد المركبي) تتجمع الوحدات التي تشترك في وجه من أوجهها، في الذاكرة، وتؤلف بذلك فئات تسودها علاقات متنوعة»...»[28]

لذا، فإن بارت يؤكد على وجود علاقة بين وحدت الجملة الواحدة، بل وأيضا بين الكلمة الواحدة وكل وحدة من هذه الوحدات تساهم بمعنى إضافي في تقابل مع وحدات لغوية أخرى. وفيما يتعلق بالمفردات، فإن العلاقة تتحدد من إخلال إدراج مجموعة من الصوامت في أنساق تركيبية عملا بما يحدده النظام الفونولوجي فيما يخص تكوين مفردات اللغة.

أما المحور الثاني للغة، فهو النظام الذي يرى بارت بأن سوسير اعتبره:

«سلسلة من حقول التداعي اللفظي، يتحدد بعضها بآصرة الصوت (تدريس-تسليح) وبعضها الآخر بآصرة المعنى (تدريس تعليم). وكل حقل عبارة عن ذخيرة من الألفاظ المحتملة (لأن واحدة منها فقط تتحقق

في الخطاب الراهن): ويلح صوسير على كلمة لفظة (التي استبدلها من كلمة، وهي وحدة تدخل ضمن طبيعة المركب) لأنه، كما أوضح صوسير، بمجرد قولنا «لفظة» مكان «كلمة»، تثار فكرة النظام.»[29]

والنظام في نظر بارت واستنادا دائما على اللسانيات البنيوية، يرتكز على العلاقات الاستبدالية بين مختلف الوحدات اللغوية التي من الممكن أن تستبدل بعلامة موجودة في الجملة وعلامة أخرى موجودة في الذاكرة وسوسير يطلق على هذا النوع من العلاقة «بالعلاقة الترابطية». وانطلاقا مما سبق، يؤكد بارت على أهمية المركب والنظام، باعتبارهما يشكلان صعيدي اللغة كما أن بلوغ المعنى والدلالة يمر عبرهما. وبالتالي، فهو يؤكد أن دراستهما تحتاج إلى عمق من أجل تحديد واستكشاف الظواهر التي تساهم في تغليب صعيد على آخر.[30]

4- التقرير والإيحاء:

انطلاقا من قوله أن كل نظام دلائلي يضم صعيدين اثنين: صعيد العبارة وصعيد المحتوى أو المضمون وأن الدلالة تتحقق من خلال العلاقة التي تربط بينهما، فإن بارت يفترض أن يصبح نظام لهذه العلاقة بين الصعيدين فقط عنصرا في نظام ثان، فإنه في هذه الحالة سيكون بتعبيره «توسعا وامتدادا له». وستفرز هذه الحالة الجديدة وجود نظامين يتداخلان ولكن بطريقة منفصلة عن بعضهما البعض. وهذا «الانفصال» يمكن أن يتحقق بطريقتين مختلفتين من خلال مستوى اندماج النظام الأول في الثاني، ليصبح بالتالي مجموعتين متعارضتين. وفي الحالة الأولى النظام الأول يصير «صعيدا تعبيريا ودالا للنظام الثاني».[31]

وهي الحالة التي يسميها هلمسليف بـ «الدلائلية الإيحائية»:

«يشكل النظام الأول إذن صعيد التقرير Dénotation ويشكل النظام الثاني (وهو توسع للأول) صعيد الإيحاء. سنقول إذن: إن النظام الموحى Connoté نظام يتكون مستواه التعبيري ذاته من نظام للدلالة، بديهي أن تتألف الحالات الإيحائية العادية من أنظمة معقدة تشكل اللغة المتفصلة نظامها الأول (تلك مثلا هي حالة الأدب). أما الحالة الثانية للانفصال (المناقضة للأولى) فيصير النظام الأول (ع ق ض) صعيدا مضمونيا أو مدلولا للنظام الثاني وليس صعيدا تعبيريا.»[32]

يمكن اعتبار: «إمبراطورية العلامات L'empire des signes»[33] واحدا من المؤلفات التي تمثل مرحلة رولان بارت ما بعد-البنيوية باعتبار أن الاهتمام فيه انتقل من تفسير أنظمة العلامات إلى الرغبة في التخلص من تأثيرها وسلطتها.

بوصفه نصا، يمثل هذا المؤلف تحولا واضحا من استعمال عناصر السيميائيات الشكلية Formal semiology أو المبادئ التوجيهية في اللسانية البنيوية إلى دراسة الظواهر الحقيقية للممارسات الثقافية باعتبارها صورا ونصوصا قابلة القراءة.

يقول الباحث عبد الرحيم كمال:

«إن من يقرأ إمبراطورية العلامات، لا بد وأن يتساءل حول «النوع الأدبي» لهذا الكتاب. لنقل مبدئيا إنه عبارة عن «مذكرات سفر» تحكي اللقاء الفكري والجسدي بين الغرب والشرق. لقاء تتبع فيه الناقد خصوصية العقل الشرقي (الياباني)، الشيء الذي سيدفعه إلى التشكيك في «عالمية» القيم والمقاييس والمفاهيم السيميائية الغربية، والكتاب محاولة لتكسير هيمنة السيميائيات الغربية (La sémiocratie occidentale) ومحاولة لتعلم طرائق جديدة للتعامل مع العلامة ومع الإنسان والصورة واللغة. وهذا ما سيؤدي به إلى نوع جديد من المعرفة (السيميائية) لا تقوم حتما على استخراج دلالة الأشياء، ولا تقوم حتما على ذات مجردة، بل تهتم فقط بالصفة المرئية/الخارجية للشيء وللدال. وتبعا لهذا المنظور سيقرأ بارت «الحكاية-اليابان» على أنها موضوع مرئي أو فرجة (spectacle) يتكون من أيقونات لا دلالة لها سوى موضوعيتها خارج الذات المشاهِدة.

بهذه المقاربة سيتحول بارت من سيميائي الدلالة (اللغوي التكوين) إلى سيميائي اللادلالة، أو بالأحرى «منع الدلالة»، وسيأخذ الصمت اللغوي (يقصد اللغة الداخلية -المونولوغ- ولغة التواصل) مكان المعنى. وهذه المقاربة في حد ذاتها تكسير للفكر السيميائي الغربي الذي ينبني في جوهره على البحث عن دلالة الأشياء والعلامات، وعلى فكرة أن ذاتا مجردة وتاريخية هي التي تمنح الدلالة لهذه الأشياء وهذه العلامات. وهنا يتعلم بارت من الشرق حدود الفكر الغربي، وعي سيدفع به إلى التشكيك في أسس هذا الأخير.»[34]

ما يميز هذا الكتاب هو انتقاده بشكل مباشر الغرب الذي يفسر الظواهر الثقافية دون التخلص من سلطة الإيديولوجيا أما الشرق واليابان تحديدا؛ فالصور مرئية تراها العين بدون حجاب لأنها مكشوفة للجميع ولا تحتاج إلى من يفسرها. وهذا ما يؤكده الباحث عبد الرحيم كمال:

«فإذا كان الغرب يحافظ على سيرورة منظومته الإيديولوجية بواسطة الأسطورة، أي بعض العمليات الدلالية التي تعمل على تطبيع التاريخ والثقافة، فإن الشرق يؤمّن سيرورة فكره بالتقليص الكبير من تدخل الذات المانحة للدلالة (أي اللغة): فالعلامات موجودة هناك، أمام العين، معروضة في طبيعتها المرئية، ولا شيء وراء سطحية مشهدها. وبعبارة أخرى، [...]، فإن الشرق يأخذ الأشياء وعلاماتها بصفتها معطيات مرئية محضة. وهذا الاختلاف يقابل -من منظور الباحث في ميدان العلامات- بإجراءين متعارضين: إما أن

يُدخل المرء الدلالة كُرْها في الشيء المنظور إليه (effraction de sens) وهي طريقة الغرب في تناول العلامات، وإما أن يعفيه من الدلالة (exception de sens) وهو المبدأ الذي ينظم فلسفة «السيميائيات» الشرقية».[35]

في إطار اهتمامه بالصورة والثقافة في هذا المؤلف، تناول بارت عدة مواضيع منها أنواع الأكلات اليابانية، والتي تحدث عنها بإعجاب متناولا نواحيها الجمالية وثقافة الزن وأيضا شعر الهايكو. هذا الشعر الذي دأب الشعراء اليابانيون منذ مئات السنين على خلق وإبداع أمثلة منه تكون موضوعها الأساسي مرتبطا بالطبيعة كنوع من التقديس لها أو الافتتان بها. إلا أن بروزه بقوة سيتم خلال القرن السابع عشر مع الشاعر الياباني: ماتسو باشو Matsuo Bashō الذي سيمنح الهايكو دينامية جديدة ورؤية أخرى تتمثل في الاهتمام بعالم الطبيعة، باعتبارها مصدرا للتأمل. هناك أيضا شعراء يابانيون آخرون ساهموا في تطور هذا النوع من الشعر نذكر من بينهم: كوباياشي إيسو Kobayashi Issa ويوسا باسون Yosa Buson.

تحدث بارت عن الهايكو، باعتباره فنا جماليا بالدرجة الأولى، فهو بالنسبة إليه يوقظ الرغبة في الكتابة؛ لأنه سهل وبسيط وبعيد عن التعقيد الذي يجنح نحوه الكتاب الغربيون.[36]

الخطيبي أيضا اهتم بشعر الهايكو الياباني. كان ضمن لجنة المسابقة الأولى للهايكو في المغرب وفي العالم العربي ربما. نظمت هذه الجائزة سنة 1988 من طرف شاعر الهايكو المتميز سونو أوتشيدا SONO UCHIDA. أوتشيدا كان سفيرا لليابان بالمغرب في مرحلة الثمانينيات. ومن بين أعضاء لجنة المسابقة الأساتذة عبد الجليل الحجمري ومحمد أبو طالب والشاعر أحمد عبد السلام البقالي، بالإضافة إلى الأستاذ عبد الكبير الخطيبي الذي ساهم في التأطير وفي عملية الترجمة من اللغة العربية إلى اللغة الفرنسية. وعرف حفل توزيع الجوائز حضور أسماء مرموقة في عالم الفكر والإبداع يتقدمهم الفيلسوف المغربي محمد عزيز لحبابي.

ارتباطا بقيمة الصورة الفوتوغرافية التي يتميز بها شعر الهايكو، يوجه بارت انتقاده للغرب في ولائه الكبير للمعنى الذي يعذب القارئ من أجل الوصول إليه ويكون محتارا بين عدة معاني للنص الواحد. في حين أن الهايكو لا يتطلب مجهودا كبيرا لمثل الصورة لأنها أمامك خالية من كل الصور البلاغية التي لا فائدة منها.[37]

الرسالة الثقافية أيضا حاضرة في هذا المؤلف وذلك من خلال الصور التي يحتوي عليها مثل صور أشكال الكتابة وصور يابانيين يركعون وصورة طوكيو. هذه كلها سمات ثقافية تترجم سياقا تاريخيا محددا وتتجسد من خلال صور. هذه الصور لم تكلف بارت عناء الشرح والتفسير. وقد ابتعد بارت فعلا عن التحليل

في هذا المؤلف تحديدا؛ لأن الباعث الأساسي في مقاربته لليابان باعتبارها امبراطورية للعلامات أو مختبرا للعلامات كما يقول عبد الكبير الخطيبي هو باعث جمالي أساسا. لهذا، نجد بارت لا يقوم بالتنظير كما في أعماله الأولى، بل ينتقي الصور ويلبسها لباسا لغويا بسيطا ويتركها ترسل الإشارات بكل تلقائية ممكنة. بالإضافة إلى القبض على العلامات المشكلة لهذا الشرق ولليابان تحديدا، فإنه خطاب يقيم مقارنة من خلال هذه العلامات بين الشرق والغرب على مستويات عدة وأنساق مختلفة تضم من بين ما تضم الموضة والأكل والكتابة وغيرها وهي ترجمة صريحة لعشق بارت للبساطة والوضوح والصورة الشفافة التي تأتي بدون تكلف منتقدا الغرب بشكل مباشر تارة وبشكل غير مباشر تارة أخرى على اختياره التعقيد والصعوبة في كل المواضيع والكتابة الأدبية ومنها الشعرية.

يقول عبد الكبير الخطيبي بأن «إمبراطورية العلامات» مؤلف يتناول الغرب والشرق باعتبارهما هويتين ميتافيزيقيتين واحدة تغلب العقل وأخرى تغلب المقدس.[38]

في مؤلفه «إمبراطورية العلامات»، تخلص بارت من سلطة المفاهيم وقام باكتشاف العلامات المشكلة لثقافة اليابان بدافع جمالي في الأساس. قرأ مدينة طوكيو، باعتبارها علامة والوجوه والحركات والعادات باعتبارها أيضا علامات. ويعتبر بارت «إمبراطورية العلامات» أهم منجز لديه كما يؤكد ذلك عبد الكبير الخطيبي.[39]

أخيرا، يمكن اعتبار «إمبراطورية العلامات» مؤلفا حاول بارت فيه إعادة كتابة التاريخ الثقافي لليابان من خلال إمبراطورية علاماتها وذلك بتقديم وجهة نظر أجنبي ينتمي إلى ثقافة غربية وكذا وجهة نظره الشخصية البعيدة بطبيعة الحال عن كل ما يمت إلى البحث العلمي الرصين.

على الرغم من تكوينه الأكاديمي في تخصص السوسيولوجيا وحصوله على شهادة الدكتوراه من جامعة السوربون في نفس التخصص، إلا أن عبد الكبير الخطيبي كان متأثرا كثيرا بمجال السيميائيات خاصة مع المشروع النقدي المتميز لرولان بارت. والمعروف أنه في السيتينيات من القرن الماضي عرفت السيميائيات اهتماما كبيرا من لدن النقاد والمهتمين. والمهتم بكتابات الخطيبي يستشف تأثره البالغ بمشروع صديقه بارت في مجال السيميائيات التي يمكن اعتبارها قريبة جدا إلى ميدان اشتغال عبد الكبير الخطيبي في مجال الكتابة عموما.

بالسيميائيات اقتحم عبد الكبير الخطيبي الثقافة المهمشة التي لم يكن يلتفت إليها الباحثون، والتي تشكل بطبيعة الحال جزءا لا يتجزأ من التراث المغربي والهوية المغربية. مجالات مثل الأدب الشفوي والرقص

والهندسة المعمارية والوشم. انطلاقا من هذا الاهتمام بالثقافة المهمشة فقد سبر الخطيبي أغوار هذه الثقافة وألوانها المختلفة. وقد اعتبر الخطيبي هذا التوجه شكلا من أشكال النضال، باعتباره في المقام الأول مثقفا.[40]

نفس الشيء قام به بخصوص اللغة والثقافة الأمازيغية، حيث دافع عنها بشدة باعتبارها رافدا مهما من روافد الهوية الثقافية المغربية.

في سنة 1967 سيشارك عبد الكبير الخطيبي في مؤتمر دولي بمالطا حول ثقافات بلدان البحر الأبيض المتوسط. وكانت ورقة عبد الكبير الخطيبي عن «الأمثال الشعبية حول الجسد». في هذه الدراسة سيستعمل الخطيبي المنهج السيميائي وبطبيعة الحال سيعتمد على نموذج بارت في هذا المجال.

سيقوم الخطيبي بتحليل هذه الأمثال بعد ترجمتها إلى اللغة الفرنسية، باعتبارها علامات ومنطوقات لغوية معتمدا في ذلك على منهج بارت خاصة في فك رموز هذه العلامات كما في مؤلفه: Mythologies.[41]

إذا كان رولان بارت قد أنجز دراسات سيميائية حول مواضيع مهمة مثل: الدعاية والإعلان والاحتفالات والسينما والجرائم والإذاعة والمسرح والسيارات والأدب والتلفزة والأطعمة والمصارعة وغيرها، فينبغي التذكير أنه بالسيميائيات أيضا نجح الخطيبي في اقتحام عدة علامات ومجالات مثل الوشم والأمثال والخط والحكاية والأدب الشفوي والصورة والموسيقى والفن التشكيلي؛ وذلك بكثير من اللذة « Un plaisir » بتعبير رولان بارت.

أفادت السيميائيات عبد الكبير الخطيبي كثيرا في أبحاثه المنتمية لعلم الاجتماع، حيث استبدل منهج علم الاجتماع بالمنهج السيميائي من أجل التقاط العلامات بدقة خاصة عند التطرق وتحليل مواضيع مثل: السكن والمثاقفة والتعدد اللغوي.

6. اللغة وبارت والخطيبي:

تحتل اللغة أهمية خاصة بالنسبة لرولان بارت وعبد الكبير الخطيبي معا. باللغة استطاعا معا تحليل معالم الإنسان والعلامات المحركة لمحيطه وعالمه المتعدد. عالم بارت والخطيبي هو عالم اللغة التي تتشكل ضمن أسئلة وإشكاليات مختلفة وضمن بنيات ليس فقط بنيات فكرية، وإنما بنيات مجتمعية أيضا وبنيات السلطة كذلك.

قراءة الخطيبي وبارت تقتضي نوعا من لدن الاجتهاد القوي من لدن القراء والمهتمين. وغالبا ما يصنف بارت والخطيبي ضمن الكتاب والنقاد الذين يكتبون لنخبة معينة من القراء؛ بمعنى نخبة قادرة على التجاوب

والتواصل الكافي مع طروحاتهما النقدية والفكرية وغيرها. والعامل الأول الذي يحدد هذه المسافة هو اللغة التي يكتبان بهما. فلغتهما راقية جدا ومليئة بالمفاهيم المنتمية لمرجعيات فكرية وأدبية مختلفة وبالتالي ففك رموزها يقتضي قدرا كبيرا من الكفاءة اللغوية.

وحول هذا الإشكال، فدائما ما يصرح بارت والخطيبي بأن ما يسمى بصعوبة قراءة نصوصها مرده المسافة التي تربط بينها وبين القارئ. بمعنى أوضح؛ فالمشكل هو مشكل قراء بالدرجة الأولى ودائما ما يعرف رولان بارت الكاتب بكونه قارئ جيد بالدرجة الأولى، وبالتالي فالقارئ الجيد هو الشخص القادر على إعادة تشكيل النص المكتوب وإعادة صياغته من جديد.

7. اهتمام رولان بارت بمشروع عبد الكبير الخطيبي

في سنة 1974 سيقوم الخطيبي بإصدار مؤلفه: [42]« La Blessure du nom propre » (جرح الاسم الشخصي)، والذي صدرت نسخته العربية تحت عنوان يبدو أن بعيد شيئا ما عن الأصل ألا وهو: «الاسم العربي الجريح».[43]

في هذا العمل الذي سيشتغل فيه الخطيبي على الوشم، الأمثال المغربية، الرسم الخطي، الحكاية، بلاغة الجماع وغيرها من المواضيع استعمل الخطيبي منهجا رصينا يتمثل في منهج «التداخل الدلائلي» « Intersémiotique » والذي كتب عنه الخطيبي في تقديمه للكتاب وأيضا في مؤلفه الأخير «الكاتب وظله». يقول محمد بنيس في هذا الإطار: «صفة الإبداع في مقاربة الخطيبي تتجلى في قدرته على الانتقال مع الدليل الواحد بين المجالات المتعددة، أي ما يمكن تسميته بالهجرة الثانية. هل هي عودة إلى الرؤية البودليرية مطبقة في مجال التحليل؟ إنها شيء من هذا وغيره».[44]

في سنة 2002 سيصدر الخطيبي مؤلفا آخر تحت عنوان: «الجسد الشرقي Le corps oriental» واعتمد فيه منهجا يتمثل في مقابلة croiser نوعين من القراءة: الأولى تتمثل في تمظهرات représentations الجسد في الإسلام والثانية تتمثل في الصورة الإسلامية للجسد من خلال منهج «التداخل الدلائلي» « Intersémiotique ».

لذا، فالخطيبي كما بارت أيضا ومن زوايا مختلفة حاول رد الاعتبار للثقافة المهمشة التي ظلت مهمشة. الزربية تدخل أيض في هذا الاهتمام. الخطيبي منذ طفولته فتح عينيه على الألوان وكان يشاهد أمه وخالته وهما تحيكان الزرابي من حين إلى حين حسب رواية أمه عائشة بوخريص التي توفيت سنة 1986. ومن هنا ربما بدأ اهتمامه بالزربية أو كما يعرف الخطيبي الذاكرة في أحد حواراته بأنها: «تأسيس الذات ولكنها في

نفس الوقت مستقبلية؛ لأنها تساؤل حول الزمن والحياة والموت وأيضا المستقبل العالمي التقني، العلمي... إلخ».[45] ويضيف أن «الذاكرة ليست كالهوية شيئا جامدا او ميتا، ولكنها كالحاضر في المستقبل. فالماضي متغير، ليس هناك ماض مطلق ولا منتهي، هو كالهوية مجموعة من الآثار والبصمات تكون الذات وتكون الموجود كخريطة من آثار هي مرة أخرى مستقبلية».[46]

السيميولوجيا ساهمت أيضا في إغناء الكتابة الروائية لدى عبد الكبير الخطيبي ومكنته من اكتساب البراعة في نقل التفاصيل والنبش في العلامات ثم نسجها في قالب سردي جميل. يكفي ان نذكر في هذا الباب مؤلفه السردي «عشق اللسانين Amour bilingue». على النقيض من ذلك لم يتمكن ربما رولان بارت من كتابة عمل روائي واكتفى بالمجال النقدي.

اجتهاد الخطيبي في مجال النقد وفي حقل السيميائيات تحديدا سيجعل رولان بارت ينسج شهادة قوية تعبر عن التقدير الكبير الذي يكنه له.

يقول رولان بارت في شهادته التي كتبها تحت عنوان «ما أدين به للخطيبي»:

«إنني والخطيبي، نهتم بأشياء واحدة، بالصور، الأدلة، الآثار، الحروف، العلامات. وفي الوقت نفسه يعلمني الخطيبي جديداً، يخلخل معرفتي؛ لأنه يغير مكان هذه الأشكال، كما أراها يأخذني بعيداً عن ذاتي، إلى أرضه هو، في حين أحس كأني في الطرف الأقصى من نفسي.

إن الخطيبي معاصر، يساهم في هذه التجلية التي تنمو بدخيلتي، وشيئاً فشيئاً أدرك كيف أن المشروع الدلائلي، الذي ساهمت فيه وما أزال، ظل حبيس مقولات الكلّي التي تقعد كل مناهج الغرب منذ أرسطو. كنت أفترض ببراءة، وأنا أسائل بنية الأدلة، أن هذه البنية تبرهن على عمومية ما، تؤكد هوية لم تكن، في العمق، وبسبب المتن، الذي اشتملت عليه، إلا هوية الإنسان «الثقافي» لموطني.

والخطيبي يقوم بمعنى ما بالشيء نفسه لحسابه الخاص. إنه يسائل الأدلة التي ستجلي له هوية شعبه، ولكن ليس الشعب واحداً. إن شعبي أنا لم يعد «شعباً فصورة هويته - التي نسميها تقاليده - لم تعد إلا مادة متحفية في متحف التقاليد الشعبية الكائن جنب بوادو بولوني، غير بعيد عن حديقة قديمة للحيوان.

فالأمر يتعلق في الحالين معا بمخزون «الغرابة». إن ما يمكنني أن أسائله، على مستوى معين من السلم الاجتماعي الذي آخذ فيه مكاني، هو الفرنسي «الثقافي»، مصوغا بالموجات المتعاقبة للعقلانية، للديمقراطية ووسائل الإعلام الجماهيري. وما يسائله الخطيبي هو إنسان «شعبي» كلية، هذا الذي لا يتكلم إلا بالدلالات الخاصة به، ويجد نفسه دائما مغدورا من طرف الآخرين، سواء أكان ناطقا (أي الفلكلوريين) أم مجرد منسي

بكل بساطة (أي المثقفين). إذا أصالة الخطيبي ساطعة بدخيلة عرقه. صوته متميز حتما، ومن ثم فهو منفرد حتما. لأن ما يقترحه، بشكل مفارق هو استرجاع الهوية والفرق في آن، مثل هوية معدن خالص، متوهج، ترغم أيا كان على قراءتها كفرق.

وهنا يمكن لغربي (مثلي) أن يتعلم شيئا من الخطيبي. إننا لا نستطيع أن نفعل ما يفعله. ليس أساسنا اللغوي واحدا: ومع ذلك يمكن أن نأخذ عنه درسا في الاستقلال، مثلا. إننا واعون مؤكدا بانغلاقنا الإيديولوجي، ومنا من يبحث عن بعض أفكار الفرق وهم يسائلون المطلق الآخر، الشرق (أعني: الزن، الطاو، البوذية)، ولكن ما يجب أن نتعلمه ليس هو استظهار نموذج (تفرق اللغة بيننا فيها تماما)، بل أن نكتشف لأنفسنا لغة «متعددة المنطقة»، «لمامة» فروقات سيقوض مزيجها الاندماجية المرعبة (لأنها تاريخيا) بعيدة القدم للأنا الغربي.

لهذا نحاول أن نكون «مزاجين» نستعير من هنا وهناك بقايا «الأمكنة الأخرى» (شيئا من الزن، شيئا من الطاو ...إلخ)، وتخلط هذه الهوية الغربية التي عادة ما تضغط علينا كغطاء (ليس دائما ثمنه وبذخه). لهذا لا يسعنا أن نعود إلى ما هو «شعبي» لدينا، فنحن لم نعد نملكه، ولكن يمكننا أن ننفتح على «شعبيات» أخرى، يمكن أن «ننزاح عن المركز» كما نقول الآن. وهنا تمنحنا كتب الخطيبي متتالية بارعة وقوية من الأدلة التي لا تقبل الاختزال ومفسرة في آن مما يسمح لنا بالإمساك بالآخر انطلاقا من نفسنا.»[47]

يمكن اعتبار هذه الشهادة توصيفا دقيقا للصداقة الفكرية بين رولان بارت وعبد الكبير الخطيبي وتحليلا شاملا لتفاصيل اجتهاد الخطيبي واستطاعته استيعاب المنهج السيميائي وتوظيفه بطريقة علمية محكمة عبر تحليل الظواهر المنتمية للثقافة المهمشة. بالإضافة إلى ذلك، استطاع الخطيبي استعمال منهج التداخل الدلائلي Intersémiotique بامتياز مراعيا خصوصيات كل مجال خاضع تحت التحليل. الخطيبي يدرك إدراكا تاما الاختلافات البنيوية الموجودة بين نص مكتوب وبين صورة ورسم وبالتالي فالآليات تختلف باختلاف نوع العينات.

يمكن الإشارة أيضا إلى أن الخطيبي لا يعير للشق النظري اهتماما كبيرا بل يشير إلى المنهج بعجالة ويتجه مباشرة نحو الجانب التطبيقي مدققا في تفاصيل التحليل بطريقة علمية رصينة. وهذا ما جعل دراساته وأبحاثه تتسم بالعمق والتفرد بالإضافة إلى الجرأة في اقتحام عدة مواضيع كانت تدخل في باب المسكوت عنه مثل الجنس في الإسلام. من خلال الشهادة ألمح رولان بارت ولو بطريقة مختصرة أن ثقافة عبد الكبير الخطيبي المزدوجة ساهمت بشكل فعال في بلوغ أبحاثه مكانة علمية عالمية ومكنته من اقتحام مجالات ومواضيع متعددة في حين أن رولان بارت لم يستطع القيام بذلك.

خاتمة

ما ينبغي الإشارة إليه في الأخير هو أن الخطيبي بحكم ثقافته المزدوجة، العربية والإسلامية من جهة والفرنسية من جهة أخرى، نجح في تحليل عدة علامات تحتل مكانة مركزية في التراث الثقافي لهويته المتعددة. ومن خلال تأثره بالمشروع البارتي، سواء على مستوى النقد الأدبي أو على مستوى السيميائيات منذ سنوات دراسته الثانوية أو خلال دراسته الجامعية بجامعة السوربون بفرنسا، استطاع الخطيبي استخدام المنهج السيميائي باقتدار شديد ونجح بالتالي من دراسة كل الأشكال المهمشة في الثقافة الشعبية المغربية خاصة والعربية عامة مثل الوشم، الخط والتشكيل. نجح الخطيبي أيضا في تقديم دراسات رصينة حول الجسد والجنس في الإسلام والأمثال الشعبية ذات الحمولة الجنسية باستخدام المنهج الدلائلي ودون الخوض كثيرا في الشق النظري كما في مؤلفه السابق الذكر: «**الاسم العربي الجريح**». ونظرا لتعدد اهتمامات عبد الكبير الخطيبي ورولان بارت على مستوى الكتابة والنقد فإنه يصعب تصنيفهما في مجال معرفي معين وبالتالي فهذا التعدد والتنوع هو ما يمنحهما قيمة علمية متميزة. كما أن العلاقة التي كانت تربط رولان بارت بعبد الكبير الخطيبي كانت تشمل الصداقة بشقيها الإنساني والفكري والقائمة على مبدأ الاحترام والقبول بالاختلاف. يقول عبد الكبير الخطيبي:

«تعلن الصداقة الفكرية أنها نمط بعيد عن الحياة واضطراباتها. ندرك القيمة الكبيرة لهذه اللحظات عند توفر الفرصة للاستماع إلى صديق وإلى حوار حصيف وموزون أو غير موزون حسب تلك اللحظات]... [الصداقة الحقيقية هي الحضور الرائق والظاهرة الطاهرة المتدرجة والمتجهة نحو زمن التناسخ والموروث.»[48]

بيبليوغرافيا

- Barthes, Roland (1953). Le Degré zéro de l'écriture. Paris, Seuil.
- Barthes, Roland (1954). Michelet par lui-même. Paris, Seuil.
- Barthes, Roland (1957). Mythologies. Paris, Seuil.
- Barthes, Roland (1963). Sur Racine. Paris, Seuil.
- Barthes, Roland (1964). Éléments de sémiologie. Paris, Seuil.
- Barthes, Roland (1964). Essais critiques. Paris, Seuil.
- Barthes, Roland (1966). Critique et vérité. Paris, Seuil.
- Barthes, Roland (1967). Système de la mode. Paris, Seuil.
- Barthes, Roland (1970). L'Empire des signes. Paris, Skira.
- Barthes, Roland (1970). S/Z. Paris, Seuil.
- Barthes, Roland (1971). « Réponses » (entretien). Tel Quel, no 47 (automne) : 89-107
- Barthes, Roland (1971). Sade/Fourier/Loyola. Paris, Seuil.
- Barthes, Roland (1973). Le Plaisir du texte. Paris: Seuil.
- Barthes, Roland (1975). Roland Barthes par Roland Barthes. Paris, Seuil.
- Barthes, Roland (1977). Fragments d'un discours amoureux. Paris, Seuil.
- Barthes, Roland (1978). Leçon : leçon inaugurale de la chaire de sémiologie littéraire du Collège de France, prononcée le 7 janvier 1977. Paris, Seuil.
- Barthes, Roland (1979). Sollers écrivain. Paris, Seuil.
- Barthes, Roland (1980). La Chambre claire : note sur la photographie. Paris, Gallimard et Seuil.
- Barthes, Roland (1981). Le Grain de la voix : entretiens 1962-1980. Paris, Seuil.
- Barthes, Roland (1982). L'Obvie et l'Obtus. Paris, Seuil.
- Barthes, Roland (1984). Le Bruissement de la langue. Paris, Seuil.
- Barthes, Roland (1985). L'Aventure sémiologique. Paris, Seuil.
- Barthes, Roland (1987). Incidents. Paris, Seuil.
- Barthes, Roland (2002). Écrits sur le théâtre. Paris, Seuil.
- Barthes, Roland (2009). Carnets du voyage en Chine. Paris, Bourgois.
- Barthes, Roland (2009). Journal de deuil. Paris, Seuil.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2023

جميع الحقوق محفوظة © 2023